مقدمة

سطرت هذا الكتاب فى مدة وجيزة ، ولكننى عشت أفكاره فى ذهنى أربعة أعوام سوياً ، قضيتها مدرساً للفلسفة بمدينة حلوان ، تلك الواحة الوادعة ، بمنأى عن بهرج الدنيا ، وضجة الحياة . وقد كانت ظروف حياتى فى تلك المدينة تفرض علىّ لوناً من العيش أقرب ما يكون إلى الشيخوخة بتأملاتها العميقة ، وحكمتها الهادئة ، ونظرتها إلى الوجود فى شجن وسخرية . ولم يكن لى فيها من متع الشباب ، أو أمانيه المحلّقة وأهوائه الجامحة ، ما يصرفنى عن صومعة نفسى ، أو يشغلنى عن التأمل فى مشاكل الإنسان الكبرى ، وبرغم إقبالى على الناس ، وإقبالهم علىّ ، فقد كان العمل الدائب ، والتفكير ، والقراءة عزائى الوحيد .

هنالك كانت دروس الفلسفة مسلاتى الأولى . بيد أننى استبحت لنفسى أن أخرج عن نظام التدريس المعهود ، ضارباً باللوائح الشكلية عرض الحائط ، إيماناً منى أن الفلسفة هراء ، إن لم تنبع من عقولنا على نحو طبعى ، وترتبط بجماع نفوسنا ، وتتكامل مع حياتنا فى وحدة منسجمة هى ما يميز التفكير الإنسانى . فكان الدرس مشكلة فلسفية أثيرها ، وأدع تلاميذى يتناولونها بالنقاش ، كل منهم يدلى بدلوه . وكثيراً ما كان أحدهم يجابهنى بمشكلة خطرت بذهنه وحيرته ، فأجعلها موضوع الجدل وأتخذها محور الحديث ، ثم أجمل ما انتهى إليه البحث من آراء متعارضة ، وفى أعقاب هذه المحاورات ألقى إليهم برأى الفلاسفة واحداً إثر آخر .

وقد وجدت من تلامذتى بعد حين ، حماساً شجعنى على أن أنشىء فى محيطهم الضيق جمعية فلسفية صغيرة ، كان لمحاوراتها فضل كبير فى توجيه تفكير أعضائها اتجاها نقدياً حراً . وسرعان ما تبينت أن تفكيرى بدوره أخذ يقبل تبدلا كبيراً متأثراً بمناقشات التلاميذ ، وأسئلتهم ، واعتراضاتهم ، وسخريتهم ونكاتهم أحياناً . فقد كان لهذه جميعا فضل كبير فى إيقاظى من

الغفوة الأكاديمية . وتحريرى من النزعة المدرسية التقليدية التى تفصل بين الأفكار المكتوبة والعقول المفكرة التى أنتجتها ، وفى إثارة المشاكل الفلسفية فى ذهنى على نحو لم أعهده من قبل . وتبينت أن اصطدام الأفكار على تباينها ، وتبادل الآراء برغم تفاوتها ، فى حرية وصدق وإخلاص ، خير سبيل لتكوين الثقافة الحية الفعالة ، وأن خير ثقافة هى ما تكاملت فيها الاتجاهات العقلية فلسفية وعلمية وفنية بل وإيمانية .

وقد أيقنت أن إعراض الكثيرين عن الفلسفة مرجعه إلى جهلهم بحقيقتها وليس إلى عجز عن تذوقها ، وأن المسئول الأول عن إعراضهم هذا ، كتب المؤلفين التى تعرض مذاهب الفلاسفة ونظرياتهم النهائية كما اكتملت فى أذهان هؤلاء بعد كفاح فكرى شاق . حيل المؤلفين يستعرض الثمرة النهائية ، ويغفل الحركة الفكرية الكبرى التى أثمرتها . وعندى أن عملية التفكير ذاتها ينبغى أن تكون موضوع الدرس والتحصيل . فما هدفنا من تدريس المذاهب الفلسفية أن نشحن عقول الطلاب بالأفكار الجامعة والآراء المجردة التى لا حياة فيها ، إنما هدفنا تنمية هذه العقول ، وتوجيهها على نحو يكفل للنشء سلامة التفكير الحر ، فيجنّبهم الاستسلام الأحمق أو التعصب الممقوت . ولو أن الفلسفة قدمت للطلاب أو القراء ، من حيث هى أسلوب من أساليب التفكير يمكن لكل منهم أن يمارسه بنفسه ، لما أعرضوا عنها ، أو سخروا من مذاهبها التى سوف تبدو لهم حينئذ نتيجة طبيعية لتفكير طبيعى ، فى مشاكل اعترضت أذهان الفلاسفة على نحو طبيعى .

وقد هالنى بعد ذلك ، أن كثيراً من المهتمين بالدراسات الفلسفية ، ومن ورائهم نفر لا يستهان بهم من الطلاب ، يتملكهم زهو التخصص ، فيستخفون بقدر الجوانب الأخرى من الفكر الإنسانى ، كالعلم والفنون الجميلة ، أو يسخرون من النزعات الإيمانية ، غافلين عن حقيقة جوهرية : هى أن الفكر وحدة متآلفة أو حركة نفسية متكاملة لا تنفصم من تيار الحياة ، وأن

كل مظهر من مظاهر الفكر لايقل قيمة وأهمية عن المظاهر الأخرى . ولذلك لم يكن مناص من أن ألح فى دروسى على أخطاء الفلاسفة إلحاحى على صائب أفكارهم ، ومن أن أبرز الأسلوب العلمى فى التفكير كقفزة رائعة من قفزات الفكر الإنسانى .

وقد لاحظت بعد كل ماتقدم ، أن نفراً من خيرة المثقفين ثقافة فلسفية ، بعدت بهم الفلسفة عن واقع الحياة الإنسانية ، وسمت بهم عن التنازل ليعيشوا فى وئام مع عامة الناس ، وقضى وهم العبقرية فى أحلامهم على أى تقدير للجموع الغفل ، وأن ثمة قوما آخرين أكثر تواضعاً من هؤلاء السادة ، أحدث فيهم الانصراف الكلى إلى الكتب نظرة تشاؤمية ، عدوها عمقاً وفلسفة ، وما هى فى حقيقة الأمر غير عرض من أعراض انحلال نفسى ، مردّه إلى تغليب ناحية من نواحى النشاط الإنسانى على حساب غيرها ، وإهمال نزعات طبيعية لا تقل عن نزعة البحث العلمى ، كالحب والنزوع إلى الجمال ، والكفاح العملى . . . وغير ذلك من نزعات يلطف إرضاؤها من جفاف الحياة ، ويبيد الأشجان ، ويمحو الشكوك .

كل هذه الأمور مجتمعة ، جعلتنى أفكر فى تأليف كتاب صغير هو محاولة مبدئية لعرض مختلف أساليب التفكير على نحو تكاملى ، فلا يكون كتاباً يجمع نظريات العلم أو الفلسفة ، بل كتاباً يضم المناهج التى يستخدمها العلماء والفلاسفة والفنانون والمؤمنون فى الوصول إلى الحقيقة التى هى هدف الجميع المشترك .

وظللت طوال الأعوام الأربعة الماضية أوجه قراءاتى ، وتأملاتى — على وعى بالهدف أحياناً ، وغير واعٍ به أحياناً كثيرة . وكنت كلما مضى حول ، وشرعت أستقبل التلاميذ الجدد من الحول التالى ، يزداد شعورى بالحاجة إلى مثل هذا الكتاب ، ويتركز تفكيرى فى موضوعاته حتى تم فى ذهنى فصولا ، وصح العزم على أن أبدأ الكتابة فكانت بضع مقالات نشرتها فى

مجلة الرسالة . ولكن شئون العيش ، وشجون الحياة ، وهموم العمل الرتيب ، وفوضى المعاملات الإنسانية ، تضطر المرء أحيانا أن يمضى فى غمار الحياة اليومية ، كما تمضى قطرة الماء فى خضم التيار : مسلوب الإرادة ، فاقد الوعى ، خامد الحس ، موزع النفس . وهل من سبيل إلى التفكير المشرق الصافى ، ما لم نكن بمنجاة من عمل مرهق يأخذنا من جميع أقطارنا ، وما لم نهتد إلى فرجة من وقت نتسلل من خلالها إلى الوطن العزيز : وطن الفكر المقدس ؟

وأخيراً نقلت إلى معهد التربية لتدريس علم النفس . فكان ذلك بداية عمل جديد ، وختام عمل عزيز على نفسى — إلا من قسوة ملابساته — فخشيت أن تتبدد الأفكار التى تتفزز فى ذهنى فى حيوية وحرارة ، وعزّ علىّ أن يجرفنى تيار العمل الجديد ، فلا أفى بوعدى إلى تلامذتى المخلصين ، خاصة أعضاء الجمعية الفلسفية الصغيرة ، أولئك الذين تفرقوا فى شعاب الأرض بعد أن تعاهدوا معى على أن تضمنا — برغم الفرقة — وحدة فكرية نبيلة . فعكفت على هذا الكتاب فترة من الزمن ، حتى تم بصورته الحالية التى أعتبرها مجرد محاولة أرجو أن تتبعها محاولات أكثر كمالا واستيفاء .

ولعل المشرفين على تدريس المواد الفلسفية بوزارة المعارف أن يطلعوا على هذه المحاولة وهم بصدد تعديل المناهج والبرامج ، خاصة وهى وليدة تجربة شخصية ينبغى أن يكون لها الاعتبار الأول فى أى تعديل .

هذا وإن كنت أقدم الكتاب للقراء عموما ، فإنى أقصد به على وجه الخصوص طلاب العلم : أولئك الحيارى الباحثين عن أهداف تنظم حياتهم ، ومثل توجه نشاطهم ، وأفكار تسدد خطاهم . لعلهم يغيرون من أسلوب حياتهم المشتتة المبدّدة ، ويتحررون من الاهتمامات التافهة ، ويتنكبون سبيل التهريج العلمى ، والاتجاهات الانحلالية المنحرفة .

وأتقدم بجزيل شكرى لصديقىّ الدكتور أبو مدين الشافعى والأستاذ عبد العزيز حسين على ملاحظاتهما القيمة .

المؤلف

القاهرة فى ١٩٤٩/١١/٦